مجلة الرائد

العدد : ٢٣٨ الموافق في شعبان ١٤٢٣ هجري ٢٠٠٢/١٠ ميلادي

عنوان المقال : صورة الغرب في ثقافة المسلمين * ٢/٢ *	الكاتب : د. مروان قباني

زمن الأزمة :

بدأ القرن العشرون والمسلمون في أزمة فكرية تجاه الغرب الذي لم يقتصر دوره على التطور التقني ، فقد ظهرت فيه فلسفات متعددة تناولت جميع قضايا الحياة وشكلت مع التطور العلمي شبكة معقدة تعكس كل مسألة منها على أخرى ، لا يمكن فيها فصل الفكر عن السياسة ولا الثقافة عن الاقتصاد ولا الاجتماع عن التقنيات ، أضف على ذلك ما عاناه العالم الإسلامي من سيطرة الاستعمار الذي بدا جاثماً بثقله على مساحة العالم الإسلامي كافة ، وهو ما طرح التساؤل لدى المسلمين عن وسيلة التخلص منه وبناء سبل النهضة .

فمحمد رشيد رضا (ت ١٩٣٥م) يدعو إلى إيجاد تكافؤ مادي بين الشرق والغرب ، وأن يجري إقناع رجال الدولة المستعمرة أو إكراههم بقوة شعوبهم الأدبية بقاعدة حرية الشعوب وسيادتها القومية ومساعدتها في تعمير بلادها مقابل الانتفاع منها بما في بلادها من مواد أولية .

أما شكيب إرسلان (ت ١٩٤٦م) فكان هاجسه إيجاد قوة إسلامية تجابه قوة الاستعمار الغربي القوي والمنظم والمتعصب ، وأن ملاك الأمر هو الإرادة فمتى وجدت وجد الشيء المراد . وأن الإسلام يكاد يضيع بين الجاحدين الذين لحقوا بالأوروبيين وبين الجامدين الذين جعلوا الإسلام دين الآخرة فقط .

وطه حسين (ت ١٩٧٣م) الذي كان شاغل الناس من عشرينات إلى خمسينات القرن ، فبعد معاركه التشكيكية بالشعر الجاهلي ، دعا إلى تحديد الانتماء الثقافي لمصر حيث وجد أن التفاهم أسهل والعلاقة أوثق هي مع أوروبا من خلال اتصالها بالبحر الأبيض المتوسط ، وأن مصر كانت دائماً جزءاً من أوروبا في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية .

بروز الحل الإصلاحي والمدرسة التوفيقية وجهودها في إقامة مشروع دولة حديثة مسترشدة بالنموذج الأوروبي ، ما لبث أن تعرض لانتكاسة كبرى أدت إلى تصاعد شكوك الإصلاحيين من سلامة موقفهم من الغرب ؛ غداة قيام مصطفى كمال بإعلان إلغاء الخلافة العثمانية ، وتقاسم الأوروبيين من جديد لأقاليم الدولة العثمانية المنهارة ، وقيام سلطات وطنية مدينة بوجودها للرعاية الأوروبية ، وظهور ما سمي بأزمة وجود وأزمة هوية ، اقتضى هذا كله ظهور حركة إحيائية تطرح كيفيات الخروج من ظروف التأزم السياسي والثقافي ؛ فكانت حركة الإخوان المسلمين لتمثل الوعي القوي للصدمة العربية ،

عنوان المقال : صورة الغرب في ثقافة المسلمين * ٢/٢ *	الكاتب : د. مروان قباني

ولتؤكد أن الإسلام يملك النموذج للدولة الصالحة والعادلة بشكل متقدم عن النموذج الغربي المستورد ، الذي ليس هو مفضولاً فقط بل هو هيمنة وتآمر ومادية مجرمة .

فكان أبو الأعلى المودودي (ت ١٩٧٩م) يرى في كتابه (نحن والحضارة الغربية) أن الغرب على نقيض الإسلام ، وكأنهما سفينتان تجريان في جهتين متعاكستين ؛ فمن ركب إحداهما هجر الأخرى ولا بد ، ومن أبى إلا أن يركبهما في الوقت الواحد فاتتاه معاً أو انشق بينهما نصفين ... وأن أوروبا بسبب مشكلاتها الاقتصادية والأمراض وتبدد نظام العائلة وقطع النسل والقومية هي في طريقها إلى الانتحار .

والمعاني نفسها يؤكدها أبو الحسن الندوي في خمسينات القرن العشرين وأن الروح القومية لأوروبا ستقودها إلى الانتحار ، وأن المسلمين هم الأمة الوحيدة التي تعد خصيم الأمم الغربية وغريمتها ومنافستها في قيادة الأمم شرط أن ينظموا أنفسهم .

أما الشهيد سيد قطب فلا يرى مانعاً من أن يتلقى المسلم من غير المسلم علم الكيمياء البحتة أو الطبيعة أو الفلك أو الطب وأمثالها ، ولكنه لا يقبل أن يتلقى أصول عقيدته ولا مقومات تصوره ولا منهج تاريخه أو مذهب مجتمعه ولا نظام حكمه ، ورفض كل فكرة للتوفيق بين الإسلام وغيره .

الداعية الأستاذ محمد قطب في تحليله لفلسفات الغرب يذكر أن لها ما يبررها في تاريخ أوروبا السياسي والاجتماعي ، وأن نتيجة هذه الفلسفات هي الحروب التي ستحطم في لحظة ما شيده الإنسان في أجيال .

أما الشيخ يوسف القرضاوي فيرى أن الحلول التي تعرضها أوروبا مرفوضة لأنها ناتجة عن مصدر فاسد ولأنها لا تناسبنا أصلاً : " فحضارتها حضارة الوسائل والآلات لا حضارة المقاصد والغايات وهو سر ما تعانيه من نقص وآفات " .

تعرض هذا التوجه لضغوطات شديدة من قبل السلطات الحاكمة في البلدان الإسلامية التي تابعت نهج الخضوع الثقافي للغرب ، وأصبحت مجتمعات المسلمين أسيرة النموذج الغربي على تعدد تجلياته ومذاهبه فكراً وقيماً وعادات وتقاليد وذوقاً وزياً إلى آخر القائمة التي تعكس أزمة زمن الرق الطوعي ، إن الرق الإرادي هو أخطر من الرق اللاإرادي ، فكانت كارثة حقيقية في محاولة الجمع بين

عنوان المقال : صورة الغرب في ثقافة المسلمين * ٢/٢ *	الكاتب : د. مروان قباني

المتناقضين ؛ فانقسم العقل الإسلامي إلى شطرين أحدهما لمعالجة الدنيا والآخر لشؤون الدين ، كما انشطرت النفس الإسلامية لتمارس أقسى أشكال التناقض وليبقى المسلم ممزقاً مشوهاً لا دور له سوى الطاعة لما يمليه عليه الآخرون ، والغرق في مزيد من التبعية والغربة عن التراث والثقافة بل وعن النفس

مضى حوالي سبعون عاماً من القرن العشرين فكانت من أكثر الأزمنة حركة وتنوعاً وتبدلاً وصراعاً وعنفاً في جميع قضايا الحياة ، وصورة الغرب في ثقافة المسلمين طالتها هذه الأوصاف جميعها ، ليطرح السؤال مجدداً : ما هو السبيل الصحيح للتعامل مع الغرب ؟ وكيف نقف منه ؟ .

المرحلة التي عنونت بالصحوة الإسلامية ، والتي لم تكن واضحة المشروع ، شهدت أكثر من تيار ، سواء المتأثر بالثقافة التوفيقية أو المدرسة الإصلاحية أو المتأثر بالبيئات المنغلقة أو التيار الجهادي التكفيري ، وجرت فيها ممارسات شوهت صورة الإسلام وإرادة التجديد ، ليبرز وبقوة تيار وسطي مزج ما بين تراث المدرسة الإصلاحية ومنهج مقاصد الشريعة ومنهج التأصيل ومقاربة النصوص وتنزيلها على الوقائع وفقه الأولويات والموازنات ، مع دعوة لتميز الأمة بمشروع حضاري متوازن متكامل يستوعب المنجزات العلمية لحضارة الغرب مثلما فعل المسلمون الأوائل مع حضارات ذلك الزمن ، المهم هو الاستماتة في الحفاظ على الهوية والرسالة على ما عبر عنه الشيخ القرضاوي .

وللتعليق على السؤال الذي أوردناه نقول : إنه برغم تطور الفكر العلمي العالمي وأساليب نظم المعلومات وثقافة تحليل المسائل للوقوف على حقائق الأمور ، فقد بقيت هذه القضايا غريبة عنا إلى حد ما ، لقد مارسنا على الأغلب بجميع تياراتنا الثقافية شمولية فكرية ، فالغرب غرب ، إما سيء وإما حسن ، نرفضه بكامله أو نخضع له ، وفلاسفته إما مفكرون مبدعون أو فساق ملحدون ، نعتبرهم قدوة أو نصرف النظر عنهم بالكامل ، والغرب إما صديق مخلص يأخذ بألبابنا أو هو عدو نبحث عن سبل مقاومته ، إما أن نتعاطف معه وإما نبغضه ، فهكذا بقيت الأمور لدينا إما أسود أو أبيض .

لقد سبق وكتب الكثير عن الغرب ، كلٌ من الأرض التي يقف عليها وحسب الزاوية التي تهمه ، بإعجاب أو اتهام ، ودائماً عن الموضوع الذي يشكل في زمنه قضية ، فهناك من كتب عن عظمة الغرب وإنجازاته ، ومن اكتفى برؤية فساد أخلاقياته ، ومن أشاد بأنظمته الفكرية والسياسية أو أدانها ، ومن

عنوان المقال : صورة الغرب في ثقافة المسلمين * ٢/٢ *	الكاتب : د. مروان قباني

أعجب بفلاسفته أو اعتبرهم دعاة فوضى وانحلال ، كل ذلك كان عناصر مهمة في الحياة الغربية ولكنه من المؤكد أن الغرب ليس كله كذلك ، وأن الاكتفاء بتلك الكتابات لم يعد مجدياً بل كان قصوراً .

لم تكن الصورة المبهرة للغرب التي تكونت لدينا نتيجة عمل بسيط ولا هي توجيه إلزامي من أحد ، بل كانت نتيجة معرفة لخلفياتنا الذهنية وأصول ثقافتنا ودراسة نفسياتنا ومعرفة جميع أوضاعنا ومن أين نؤتى ، قام بها متخصصون ومؤسسات أبحاث كبرى ، تحتاج إزالة آثارها ومجابهتها إلى جهود مماثلة لها ، أين هي من الواقع الحالي للأمة بكاملها ؟ .

ورد في نتائج تقرير التنمية العربية الذي صدر مؤخراً أن العالم العربي يترجم ٣٣٠ كتاباً في العام ، وقيل : إن ما ترجم خلال ألف عام منذ عهد المأمون إلى الآن يساوي ما ترجم في إسبانيا خلال عام واحد ، وهذا معناه أننا لا نعرف ماذا يجري حقيقة في العالم ، وما لدينا ليس إلا انعكاساً للمظاهر فقط .

وعلى أي حال وبالرغم من تنوع التيارات الثقافية لدينا ، اتسع هذا التيار وذاك أم ضاق ، فإن الحقيقة الوحيدة الماثلة أمامنا هي أن أياً من الاتجاهات الفكرية المذكورة ، أو أياً من توجهات أجهزة الحكم في العالم الإسلامي برمته ، لم تؤد إلى نتيجة ، ولم يؤسس لنهضة ، ولم يحقق تطوراً في الحياة بل لم يتكامل مشروعه بصيغة معينة مما زاد الواقع سوءاً .

وحتى الجاليات الإسلامية المقيمة في الغرب ، وعلى الرغم من احتكاكها اليومي ومعايشتها لقضاياه ، فقد مضت عدة أحقاب لم تستطع خلالها أن تمتلك الصورة الصحيحة عن الغرب ، وبالتالي لم تدرك طرائق التعامل معه ، وذلك أنها حملت مشاكلها معها من بلادها الأصلية وعاشت في الأغلب بنوع من عزلة .

بدأت النخبة الثقافية للجاليات في العقد الأخير طرح قضايا التعامل مع الغرب كالمواطنة والعمل السياسي وغيرها ، وشكلت نوعاً من التحليل المعرفي للغرب وأسلوب العيش معه ، أظنه بقي ضمن أطر محددة لم تتجاوزها إلى الشريحة الكبرى للجاليات ، التي ما زالت تحمل صورة الغرب ذات القالب الواحد مثل بقية المسلمين .

مجلة المرابط

العدد : ٢٣٨ الموافق في شعبان ١٤٢٣ هجري ٢٠٠٢/١٠ ميلادي

عنوان المقال : صورة الغرب في ثقافة المسلمين * ٢/٢ *	الكاتب : د. مروان قباني

نهاية القرن العشرين والعولمة :

إذا كان اقتباس صورة الغرب بشتى تياراته قد تم بإرادة من جانب المسلمين أو بتحضير وتزويق من جهات متعددة بالتمهيد الفكري والتوجيه الثقافي ، فإن العقد الأخير من القرن العشرين شهد تحولاً جديداً نحو إنشاء نظام واحد يعمل بموجب ما يتمتع به من قوى اقتصادية وعلمية وتطور تقني هائل بالاتصالات والمعلومات على فرض صورة وحيدة من الثقافة والفكر والقيم ، وهيمنة على الأوضاع السياسية والاقتصادية في شتى بلاد العالم ، ومنها بلدان المسلمين ليشكل خطراً جدياً جديداً على الوجود والهوية .

وتتنوع من جديد طروحات التعامل مع العولمة ، وتتعدد بحيث لا يخلو يوم من ظهور مداخلة بهذا الموضوع من خلال إصدارات كتب أو مقالات صحف أو محاضرات وندوات ، وتتكرر القضية كما حدث في نهايات القرن التاسع عشر ! ما بين دعوة للعيش معها أو العزلة عنها أو بطرح فكرة العالمية كرد عليها ، ولكن هذا كله لم يمنع من أن تصبح العولمة واقعاً يتجذر بشكل يومي .

بداية القرن الحادي والعشرين :

مع السنة الأولى من القرن الحادي والعشرين برزت مشكلة جديدة هي أحداث ١١ سبتمبر ، أخرجت ما كان مختبئاً وراء الأستار من حقد وضغينة فجرت عنصرية وعرقية وتعصباً على نفس مستوى القرن الحادي عشر الميلادي ، وكأن رئيس الكنيسة الكاثوليكية وقتها أوربان الثاني قد بعث من جديد ! الفرق الوحيد هو أننا نقابله دون كيان يحقق لنا موقعاً أو يحفظ لنا ماء وجه .

ويعيش العالم الإسلامي اليوم خوف هيجان الوحش الضخم الذي لا يرى إلا نفسه ، ليحقق مصالحه ، ويطبق قيمه بالقوة ، ويكرر قانون العنف والإرهاب والنهب وتسخير كل شيء لخدمته .

هذا الواقع الجديد خطر ولا شك ، وتداعيات هذا الحدث ما زالت تتوالى ولا يعرف أحد مداها ، والتعامل معه يحتاج إلى حذر وحكمة ورؤية صائبة وفي الوقت نفسه إلى شعور بالذات وبالهوية .

ويظهر أن هذا الوحش الهائج سيؤدي بالعالم إلى كوارث إن لم تتداركه جهود حكماء العالم . ومع هذا كله فما زالت دعوات التغريب في بلاد المسلين قائمة بنشاط من قبل العلمانيين ، الذين يجترون التصورات القديمة ولم يعترفوا بعد بأن حضارة الغرب نفسها بحاجة إلى تغيير ، لأنها وبرغم

ما فعلته لم تقدم للعالم نموذجاً حضارياً يعمل لمصلحة الإنسان والشعوب ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، وما قام على أسس الاعتداء والنهب والسيطرة هو نموذج غير قابل للتعميم ، والسير وراءه لن يقود إلا إلى مزيد من الانحطاط .

خاتمة :

لقد عرضنا كيف أننا عندما كنا أصحاب قوة وبأس أصابنا الغرور ولم ننظر إلى حقيقة أوضاع الغرب ، وكيف أننا عندما ضعفنا فقدنا الثقة بأنفسنا وانبهرنا ولم نتمكن من رؤية الأوضاع على حقيقتها . ففي الحالتين لم نكن ننظر بواقعية ، ولم نكن نلحظ التحولات وننتظر دائماً أن يأتي الفعل من الآخر ... لم يكن لنا دور سوى رد الفعل ، وهو قلما يأتي بخير ، ومازالت لدينا لغة الغرب هي العلم ، وأسلوبه هو الأمثل ، والمفكر الغربي هو العالم الخبير .

القضية ليست أن نأخذ عن الحضارة الغربية أو لا نأخذ ، فكثير من قضايا العلم والعصر وتطورها ليست ملكاً للغرب بل لمسيرة الحضارة الإنسانية ، إنما القضية أن ننطلق من ذواتنا فالشخصية لا تقتبس ، والهوية لا تستعار .

وفي المقابل فإن شخصيتنا وهويتنا ينبغي أن لا تكون على حساب الآخرين ، علينا أن نعي أن الإصلاح لا يكون إلا من داخل الأمة ، وأن لكل داء دواء ، المهم أن يتطابق الدواء مع الداء .

أما الغرب فينبغي الاهتمام بما لديه والتعرف ليس إلى مظاهر الحياة فيه فحسب بل إلى آفاقه الثقافية وأوضاعه الفكرية ، وتحليل خلفياته الذهنية والتعرف إلى أساليبه وفكره ومناهجه السياسية وخططه الاقتصادية أمر مطلوب ، وإدراك ما فيه من تعدد وتنوع ، وكيفية اللقاء مع الفئات المنفتحة الواعية والمؤمنة بالحوار وحق الشعوب بالكرامة ، بل وتجديد النظرة من وقت لآخر .

يقول محمد حسنين هيكل : إن إعادة اكتشاف الأشياء والأفكار والظروف وحتى الأمزجة عملية ضرورية لا بد وأن يقوم بها الناس ما بين الوقت والآخر ، نوعاً من الحساب والمراجعة والتثبت بالحذف والإضافة حيال أزمنة متغيرة ، وإلا فإن هؤلاء قد يتنبهون ذات يوم وإذا الحقائق قد غافلتهم وسافرت إلى المستقبل وتركتهم حيث توقفوا بظن أو وهم أنهم أدركوا وتيقنوا بما لم تعد بعده زيادة لمستزيد .

مجلة الرائد

العدد : ٢٣٨ الموافق في شعبان ١٤٢٣ هجري ٢٠٠٢/١٠ ميلادي

عنوان المقال : صورة الغرب في ثقافة المسلمين * ٢/٢ *	الكاتب : د. مروان قباني

حتى طرح المبادئ الإسلامية يحتاج إلى معرفة بالأساليب التي يفكر بها الغربيون ومما يلاحظ أن الرد على طروحات الغرب لا تكون فقط بإيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وهي مبادئ وقيم تحتاج إلى تمثل واقعي وتطبيق حقيقي .

إننا وبعد سنوات طويلة من الانحطاط نحتاج إلى نموذج معاصر للإسلام ينطلق من ثقة بالنفس ، لا من نقص

ينطلق من فعل وليس من رد فعل

ينطلق من حصانة عقائدية ، لا من نقص مناعة

ينطلق من عقول مبدعة ، لا مقلدة

ينطلق من أجهزة إرسال ، وليست للاستقبال

ليست هذه دعوة لمخاصمة العصر ، ولا لثقافة التحدي والاستعراض ، بل هي دعوة لفهم الواقع وتجديد الحياة والرقي إلى مستوى الإسلام ، وإخراج نماذج بشرية منه ، هي التي تتصدى للكلام عنه ... ساعتئذ سنبدأ مسيرة الحضارة التي تتطلب آماداً من العمل والبذل والتضحية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين